تراث الإنسانية

مذهب الذرات الروحية

لليبنتس

د . فؤاد زكريا

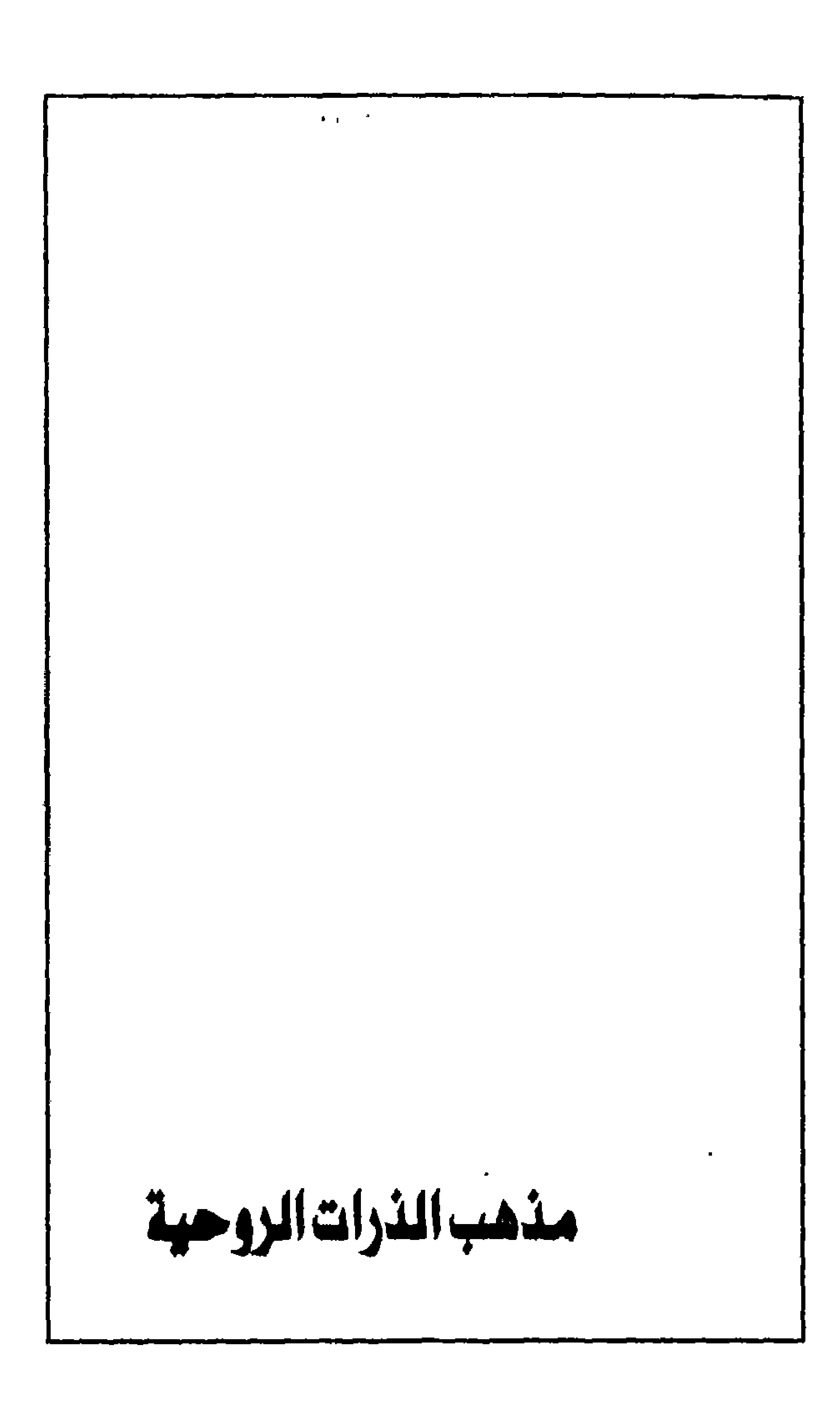


الهيئة المصرية العامة للكتاب

1·

Z

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥



مذهب الذرات الروحية

مذهب الذرات الروحية

لليبنتس

د. فؤاد زكريا



مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(تراث الإنسانية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

مذهب الذّرات الروحية
'المونادولوجيا' لليبنتس

د . فــؤاد زكــريـا

حياة ليبنتس وشخصيته

ولد جوتفريد فلهلم ليبنتس Gottfried Wilhelm Leibniz في ليبنتسج في ٣ يوليو سنة ١٦٤٦، من أسرة أشتهر الكثير من أفرادها بالميول العقلية ولا سيما في ميدان القانون. وقد توفي أبوه وهو في السادسة من عمره ، وحرصت أمه على أن تنشئه تنشئة بروتستانتينية محافظة. ولقد كان ليبنتس في صباه طفلاً معجزاً، سرعان ما فاق كل زملائه في مدرسة نيكولاي Nikoloischule وعندما التحق بالجامعة لم يكن قد بلغ الخامسة عشرة من عمره. وتأثر في الجامعة بأستاذ كانت له اتجاهات مدرسية واضحة ، هو ياكوب تومازيوس Thomasius وعلى يديه ألف أول

بحث له، نال به درجة البكالوريوس، فى موضوع كانت له أهمية كبرى فى فلسفته التالية، وهو مبدأ الفردية «De principio individui» وقبل انتهاء دراسة ليبنتس الفلسفية، إنتقل إلى دراسة القانون، وأخذ فى الوقت ذاته يدرس الرياضيات، فألف فى عام ١٦٦٦ كتاب «الفن الجامع» Ars combinatoria ولفت إليه هذا الكتاب أنظار بعض الأوساط العلمية خارج مدينته. وعندما تقدم إلى جامعة «آلتدورف» للحصول على درجة الدكتوراه فى القانون، فى نفس العام (وهو ١٦٦٦)، كان بحثه ممتازاً إلى حد أنه تلقى وهو فى هذه السن المبكرة، عرضاً للأستاذية فى نفس الجامعة ، ولكنه رفض هذا العرض.

وقد اتصل ليبنتس فى مستهل حياته العملية بسياسى ألمانى مشهور، هو البارون بوينبرج -Boine burg وبفضل هذا الاتصال أخذ يزداد اهتماماً بالشئون السياسية، فسافر إلى فرانكفورت، وتولى مهمة إصلاح اللوائح القانونية المعمول بها فى إمارة مينتس Mainz. ومنذ ذلك الحين ظلت السياسة هدفاً رئيسياً من أهداف حياته.

وكان من أهم مظاهر نشاط ليبنتس السياسي، تلك المذكرة الهامة التي كتبها عن «الأمن العام الداخلي والخارجي» Securitas publica interna et externa وتضمنت هذه المذكرة خطته المصرية Consilium Aegyptiacum المشهورة (التي سنعرض لها بشيء من التفصيل فيما بعد) ، والتي اقترح فيها تحويل انتباه لويس الرابع عشر، ملك فرنسا المشهور، عن أوروبا باقتراح إرسال حملة لغزو مصر وظلت هذه المذكرة تشغل قدراً كبيراً من اهتمام ليبنتس، فتوجه بها إلى باريس عام ١٦٧٢ أملا أن يستمع إليه الملك. وفي خلال إقامته بباريس سافر في رحلة قصيرة إلى لندن حيث انتخب عضواً في الجمعية الملكية. وبعد عودته إلى باريس بدأت دراساته الرياضية المركزة على يد الرياضي المشهور كريستان هويجنز ، وتوجت هذه الدراسات بكشفه حساب التفاضل والتكامل ، والاهتداء إلى طريقة تدوينه المعمول بها حالياً، في عام ١٦٧٥ . وكان ليبنتس يزمع الإقامة نهائياً في باريس، إذ كانت هذه الفترة من أخصب فترات حياته العلمية والفكرية، وفيما اتصل بعدد من أكبر رجال الفكر والفلسفة والعلم

واللاهوت فى عصره، وأجرى معهم مراسلات عميقة ألقت ضوءاً ساطعاً على نواح عديدة غامضة فى تفكيره.

ومع ذلك فعندما عرض عليه يوهان فردريك ، دوق هانوفر، وظيفة رئيس المكتبة فى بلاطه (وهى وظيفة كانت لها فى ذلك الحين أهمية غير قليلة (قبلها، وغادر باريس. وفى رحلة العودة إلى ألمانيا عام ١٦٧٦ زار إنجلترا وهولندا، حيث قابل اسبينوزا واطلع على آخر كتاباته وأبحاثه، وأبدى فى ذلك الحين اعجاباً شديداً واهتماماً كبيراً بها، وإن كان قد حرص فيما بعد على إظهار عدم اهتمامه بآراء اسبينوزا نظراً إلى شهرة هذا الأخير بالإلحاد فى كثير من الأوساط الأوروبية.

وفى الفترة التى أقامها ليبنتس فى هانوفر، بدأ كتابة تاريخ شامل لأسرة برنسفيك، كما نشر كشوفه فى حساب التفاضل والتكامل. وفى ميدان الفلسفة ألف كتاب «مقال فى الميتافيزيقا» Discours de mé-taphysique (سنة ١٦٨٦)، ومجموعة من الأبحاث الهامة، من بينها «مذهب جديد فى الطبيعة» Systéme nouveau de la nature (١٦٩٥) وبحثه عن فلسفة لوك بعنوان «أبحاث جديدة فى الذهن البشرى» -Nou

veaux essais sur l'entendement humain (١٦٩٦).

وعندما تولى جورج فلهلم إمارة الولاية (وقد أصبح فيما بعد جورج الأول ملك إنجلترا)، لم يكن ليبنتس على وفاق معه ، وكان لذلك بعض الأثر فى إنتاج ليبنتس، الذى تركز فى ذلك الحين على إكمال كتابة تاريخ الأسرة الملكية. على أن جهود ليبنتس قد توجت بالنجاح فى ميدان آخر : فقد نجح بفضل مساعدة تلميذته صوفيا شارلوت، أميرة براندبرج (التى أصبحت ملكة بروسيا فيما بعد) فى إنشاء أكاديمية برلين عام ١٧٠٠، واختير هو ذاته أول رئيس لها. ومع ذلك فقد فشلت جهوده الأخرى فى سبيل إنشاء أكاديميات مماثلة فى درسدن وسان بطرسبرج وفيينا. ونشر ليبنتس فى ذلك الحين كتابه الفلسفى الرئيسى الوحيد الذى أشرف على نشره خلال حياته، وهو كتاب «الحكمة الإلهية» Théodicée، وهو يتألف أساساً من محادثاته ومناقشاته مع الأميرة صوفيا. أما كتبه الرئيسية الباقية، وأهمها الكتاب الذى نقدمه هنا، وكتاب «مبادئ الطبيعة واللطف الإلهى» Principes de la

nature et de la grâce فقد كتبهما عام ١٧١٤ ونشرا بعد وفاته.

وفى هذا العام نفسه، أصبح جورج لودفج ملكاً على إنجلترا، ولم يستطع ليبنتس أن ينال حظوة لديه، فأبعد فى هانوفر حيث دأب على كتابة تاريخ الأسرة الحاكمة، ولم يكن قد أتم إلا جزءاً بسيطاً من هذا التاريخ عندما توفى فى ١٤ نوفمبر عام ١٧١٦.

ومن العجيب أن أوروبا التى كان ليبنتس ملء سمعها وبصرها فى حياته، والتى لعب دوراً عظيم الأهمية فى ثقافتها وتفكيرها وسياستها، لم تهتم به قط فى وفاته، ولم يرثه أحد سوى الفرنسيين، أما الباقون فلم يكادوا يشعرون بموته.

ومن المؤكد أن هناك جوانب عديدة غامضة فى حياة ليبنتس. فبالإضافة إلى غموض كثير من المهام السياسية التى كان يضطلع بها - وهو الغموض الذى جعل كثيراً من الناس، ولا سيما اسبينوزا، يرتابون فى نواياه ومقاصده الحقيقية - كانت حياته الخاصة بدورها مبهمة إلى حد بعيد. ورغم كل ما كتبه من رسائل، فان هذه الرسائل لم تكن شخصية، ولم تكشف شيئاً عن

الجوانب الخاصة لحياته. وهكذا فإن علاقاته العائلية ظلت مجهولة، وكل ما عرف عنها هو أن ليبنتس لم يتزوج أبداً، وأن أسرته كانت ميسورة الحال، مما أتاح له التنقل بحرية ، والتفرغ للأمور السياسية والعلمية دون اهتمام بمشكلات الحياة اليومية.

على أن في وسع المرء أن يلمح، خلال هذا الغموض المحيط بحياة ليبنتس، عنصرين أساسيين يبرزان بكل وضوح طوال مجرى حياته، هما اتساع نطاق معارفه من جهة، واتجاهه إلى السياسة من جهة أخرى.

فبفضل العنصر الأول، وهو اتساع نطاق معارفه إلى حد مذهل أحيطت شخصيته خلال حياته وبعدها بهالة أسطورية يتمثل فيها مفكراً وعالماً تتحدى عبقريته كل التصنيفات والتقسيمات الشائعة. ولم يكن من المستغرب أن تصور شخصيته بهذه الصورة الأسطورية ذلك لأن الرجل كان بالفعل نوعاً من الأسطورة. وربما كان ليبنتس آخر ممثل لتلك الفئة «الموسوعية» من المفكرين. ففي عصره، وربما قبل عصره بقليل، كان عهد التخصص قد بدأ، واتسعت المعارف البشرية إلى حد أنه أصبح من المحتم على المرء أن يختار بين

الفلسفة أو الأدب أو العلم أو القانون أو السياسة، وأصبح من الصعب أن يجمع المرء بين أكثر من فرع واحد من هذه الفروع. ولكن الدهشة تتملك المرء حتما حين يجد ليبنتس قد اشتغل بهذه الفروع كلها معاً، وكانت له فيها كلها تقريباً مساهماته المبتكرة وكشوفه البارعة. ذلك لأن ظهور مثل هذه العقلية الموسوعية أيام اليونان فى شخص أرسطو، أو حتى خلال عصر النهضة فى شخص ليوناردو دفينشى، كان أمراً مفهوماً ومعقولا أما ظهورها فى النصف الثانى من القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر فهو بالفعل أمر يقارب حد الاعجاز، لا سيما إذا كان الشخص الذى تمثلت فيه هذه الظاهرة الفريدة ينافس فى مجال الفلسفة أقطاب المدرسة الديكارتية الكبار، وينافس فى مجال الرياضة نيوتن ويتفوق عليه فى صياغته لحساب التفاضل والتكامل، ويضع من النظريات القانونية ومن الآراء السياسية والدبلوماسية ما يجعل له دوراً إيجابياً فى سياسة عصره، ويشغل بالعلم الطبيعى فيتفوق فيه، ويكتب شعراً لاتينياً يحوز إعجاب معاصريه، ويؤلف فى التاريخ مرجعاً عظيم القيمة، وينشىء أو يسعى إلى إنشاء جمعيات

وأكاديميات علمية فى مختلف المدن الأوروبية. فثقافة ليبنتس عالمية بالمعنى الصحيح ومعارفة تكاد تكون شاملة بالنسبة إلى العصر الذى عاش فيه. ولهذه الحقيقة، كما سنرى، فيما بعد، أهمية عظمى فى إيضاح معالم مذهب ليبنتس وطريقة تفكيره.

على أن الجانب السياسى من نشاط ليبنتس الشامل يستحق اهتماماً خاصاً، لأنه يمثل ظاهرة فريدة فيمن عرفناهم من الفلاسفة، ومن هنا فهو يؤلف وحده عنصراً قائماً بذاته نود أن نشير إليه إشارة خاصة. فمنذ اللحظة التى تعرف فيها ليبنتس إلى الكونت «بوينبرج» وهو فى الحادية والعشرين من عمره أصبح يقضى حياته كلها فى صحبة الأمراء والحكام ورجال البلاط، واعتاد صحبة الشخصيات الأرستقراطية الكبرى. ورغم كل ما طرأ على حياته من التقلبات ، فان الاهتمام بالسياسة ظل هو القاسم المشترك بين كل فترات هذه الحياة. وحتى فى تلك الفترة التى تعد أخصب فترات حياته من الوجهة العلمية والفكرية، وأعنى بها فترة إقامته فى باريس، نراه لا يكف عن القيام بدور الدبلوماسى ورجل البلاط وكاتم أسرار

الأمراء، ويقوم بأسفار وبعثات ومهمات غامضة لحساب إمارة «مينتس» الألمانية فى نفس الوقت الذى كان فيه يكون صلات مثمرة إلى أبعد حد مع مشاهير رجال العلم والفكر والفلسفة الذين كانت تزدان بهم فرنسا فى عهد لويس الرابع عشر.

ولقد كانت السمة البارزة فى نشاط ليبنتس السياسى، هى نمو وعيه الأوروبى إلى أبعد حد. ذلك لأنه على الرغم من اشتغاله فى معظم أوقات حياته لحساب حكام ولايات ألمانية معينة، كان فى تفكيره السياسى يتجاوز حدود الولايات والدول، وكان «مواطناً أوروبياً» بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان. وكانت الفكرة الرئيسية التى تستحوذ على تصرفاته السياسية هى أن أوروبا كلها تكون وحدة حضارية وثقافية وسياسية واحدة. ومن المؤكد أن فى تفكير ليبنتس فى هذه الناحية أوجه شبه عديدة مع تفكير دعاة الوحدة الأوروبية المعاصرين، من أمثال الجنرال دى جول والسياسى البلجيكى «سباك» وغيرهما، رغم اختلاف ظروف الدعوة فى كلتا الحالتين. ولا يقف وجه الشبه عند هذا الحد، بل إن تفكير ليبنتس السياسى كان يتضمن عناصر رجعية واستعمارية لا تقل وضوحاً عن

تلك التى نجدها عند أقطاب ساسة أوروبا الغربية المعاصرين. ويتمثل ذلك العنصر من تفكير ليبنتس فى «خطته المصرية» المشهورة. ونظراً لأهمية هذه الخطة للقارئ المصرى على التخصيص، فسوف نتحدث عنها ها هنا بشىء من التفصيل.

وضع ليبنتس هذه «الخطة» وهو فى الخامسة والعشرين من عمره. وكان يهدف منها إلى إيجاد وسيلة لصرف أنظار لويس الرابع عشر - ملك فرنسا وأكبر شخصية سياسية فى أوروبا فى ذلك الحين - عن أوروبا ذاتها ، وتحويل طاقته الحربية إلى مكان بعيد عن أوروبا، وبذلك يعود توازن القوى إلى القارة الأوروبية ويتسنى فى الوقت ذاته الدفاع عن أوروبا ضد «البرابرة والزنادقة».

ولقد كانت الظروف السياسية فى ولاية مينتس هى التى أوحت إلى ليبنتس بهذه الخطة. ففى نهاية عام ١٦٧١، كان من الواضح أن فرنسا تعد العدة لغزو هولندا، وكان أمير الولاية الألمانية يدرك أن تغير ميزان القوى فى أوروبا قد يؤدى إلى تغيير كبير فى الخريطة السياسية لأوروبا، وبالتالى إلى فقدان الولايات

الصغيرة حريتها. وهكذا أراد ، ومعه ليبنتس، أن يحول دون اقتراب الحرب من الولايات الألمانية. وسنحت الفرصة لليبنتس حين وقعت حوادث وتحرشات على حدود الإمبراطورية العثمانية، أذكت روح الحروب الصليبية من جديد فى نفوس الأوروبيين وهكذا وضع ليبنتس خطته على أساس أن توجه أسلحة لويس الرابع عشر - التى كان يعلم أنها ستنطلق عاجلا أو آجلا - ضد عدو المسيحية كلها فى الشرق، وهو الأتراك العثمانيون، عن طريق غزو بلد عظيم الأهمية مثل مصر. فكتب مذكرة سياسية مفصلة موجهة إلى الملك، قدم فيها عرضاً تاريخياً لجميع الحملات التى شنت على مصر من قبل، وتحدث عن مركز مصر الاقتصادى وموقعها الجغرافي، وأوضح مدى سهولة غزوها، والفائدة العظمى التى ستجنيها فرنسا من هذا الغزو : وهى السيادة البحرية والاقتصادية على البحر المتوسط، والسيطرة على الغرب والشرق معاً، وازدياد ألقاب الملك لقباً جديداً مشرفاً! ولم تصل الخطة فى بادئ الأمر إلى مسامع الملك، ولكن ليبنتس بذل مساعى عديدة، حتى أتاه رد يقول إن الملك على استعداد لسماع الخطة منه. ولكنه عندما سافر إلى باريس فى مارس سنة

١٦٧٢، كانت الحرب ضد هولندا قد بدأت بالفعل، ووقع ما أراد ليبنتس أن يتجنبه بغزو مصر. ونحن نعلم بطبيعة الحال تكملة القصة، وهى أن نابليون بونابرت قد حقق الخطة التى اقترحها ليبنتس، وربما كان قد اطلع على هذه الخطة ذاتها وأخذ بها، فحقق بذلك حلماً احتل أهمية كبيرة فى تفكير فيلسوفنا هذا، وبدأ عهداً جديداً من تاريخ الاستعمار الأوروبى فى الشرق الأوسط.

ففى حياة ليبنتس إذن عنصران يستحقان اهتماماً خاصاً، هما شمول معرفته، ونشاطه السياسى. ومن المؤكد أن العنصرين متعارضان : إذ أن التفرغ للأعمال السياسية، والتنقل المستمر فى أسفار وبعثات ومهام علنية وسرية، لا يترك للمرء فرصة الانصراف إلى الفلسفة والعلم. ولابد أن ليبنتس كان يتمتع بقدرات معجزة، أتاحت له أن يركز ذهنه فى أعمق المسائل العلمية، ويتفوق فى عدد هائل من الفروع المتباينة للمعرفة، فى نفس الوقت الذى كان يحيا فيه حياة صاخبة حافلة بالنشاط وسط عدد كبير من الأباطرة والملوك والأمراء والوزراء والسفراء ورجال البلاط، ويقوم فيه بواجباته السياسية والدبلوماسية والقانونية على أكمل وجه. وهنا لا يجد المرء مفراً من أن

يفترض لدى ليبنتس نوعاً من العزلة الروحية وسط هذا الصخب الذى أحاط نفسه به. ولولا أنه كان يعزل نفسه من آن لآخر، بالفكر على الأقل، عن العالم المزدحم من حوله، لما تسنى له ممارسة نشاطه العلمى الهائل على الإطلاق. فهو إذن كان يشعر بنفسه ذرة واحدة منعزلة بلا أبواب ولا نوافذ، تنطوى فى ذاتها على صورة مصغرة للعالم كله. وتلك بعينها هى الفكرة الرئيسية فى الكتاب الذى نعرضه ها هنا، وأعنى به كتاب «مذهب الذرات الروحية».

مؤلفات ليبنتس وكتاب «المونادولوجيا»

ذكرنا من قبل أن ليبنتس لم ينشر فى حياته سوى كتاب «الحكمة الإلهية» Théodicée ، كما نشر بعض الأبحاث القصيرة فى صحف علمية مختلفة. أما كتبه الرئيسية الأخرى، التى أوردنا من قبل أسماء بعضها، فقد نشرت بعد وفاته، وإن كان هو ذاته قد أعد بعضها للنشر. ولقد حفظ ليبنتس مؤلفاته، من كتب ومقالات وأبحاث، فى صورة مخطوطات ومسودات كاملة، عثر عليها فى مكتبته الخاصة، أو حفظت فى سجلات سرية (وهذا ينطبق بوجه خاص على مذكراته السياسية) .

ولقد كان نشاط ليبنتس السياسي هو سبب حفظ أوراقه العديدة المتناثرة. فعلى الرغم من أن أحداً لم يهتم به عند وفاته، فإن عدداً من الأحزاب والفرق السياسية كانت تشعر بالقلق خوفاً من أن يكون قد ترك بين أوراقه أسراراً سياسية هامة. وهكذا ضموا أوراقه ومخطوطاته، ودفعوا لورثته (وهم أقرباء بعيدون) مبلغاً ضئيلاً من المال ليتنازلوا عن حقوقهم فيها، وظلت هذه الأوراق حتى اليوم مودعة فى مكتبة هانوفر. ولا يمكن القول إن مؤلفاته الكاملة قد صدرت فى نشرة شاملة حتى اليوم : ذلك لأن أكمل النشرات، وهى تلك التى بدأتها «أكاديمية العلوم البروسية» سنة ١٩١٣ بعنوان «المؤلفات والرسائل الكاملة» Sämmtlicke Schriften und Briefe وكانت تزمع فيها نشر كل ما خلفه ليبنتس، قد انقطعت عام ١٩٣٣ بعد الانقلاب النازى فى ألمانيا.

أما كتاب «مذهب الذرات الروحية» أو المونادولوجيا، فقد كان فى الأصل مقالا قصيراً عرض فيه ليبنتس فلسفته فى ملحق لرسالة بعث بها إلى أحد مراسليه الفرنسيين المتحمسين، واسمه «ريمون Rémond» ولقد أشار بعض شراح ليبنتس إلى هذه الحقيقة، ولاحظوا

عن حق ما فيها من غرابة: إذ أن هذا الكتاب الرئيسى الذى يتضمن مذهباً ميتافيزيقياً طموحاً، لم يكن إلا تعبيراً عارضاً قدمه ليبنتس إلى أحد مراسليه، ولم يكن يقصد منه أن ينشر، وإنما كان مذكرة ملخصة تركها ليبنتس بين أوراقه الشخصية فحسب.

على أن أهمية هذا الكتاب - رغم ضآلة حجمه - إنما ترجع إلى أنه من أواخر مؤلفات ليبنتس الفلسفية فقد ألفه قبل وفاته بعامين، فى وقت كان قد أهتدى فيه إلى ذاته، وتكشفت له فيه الجوانب المتعددة التى تميزت بها عبقريته، فهو تعبير واضح عن فلسفته فى أخصب فتراتها، وهو يمثل إلى جانب كتاب «مبادىء الطبيعة واللطف الإلهى» Principes de la nature et de la grâce الذى ألفه فى الفترة ذاتها، أعلى قمم التفكير الميتافيزيقى عنده. ورغم أن ليبنتس قد أعد الكتاب الأخير بنفسه للنشر، فانه ترك الأول فى صورة غير مكتملة تماماً، ومات قبل أن يضع اللمسات الأخيرة فيه، ولكنه مع ذلك ما زال أفضل مدخل إلى فهم فلسفة ليبنتس فى صورتها الكاملة.

ويجدر بنا في هذا المقام أن نشير إلى أن ليبنتس نفسه لم يكن هو الذى اختار لكتابه هذا اسمه الذى اشتهر به، وهو «المونادولوجيا» . فليس هذا هو العنوان الذى يصدِّر الكتاب في مخطوطاته الأصلية الباقية فى هانوفر وفيينا، وإنما كان يحمل اسم «مبادىء الفلسفة» Principes de la philosophie. وظل هذا هو الاسم السائد طوال قرن من الزمان. ولكن كوهلر Koehler ، الذى أعد طبعة من أوائل الطبعات الهامة لمؤلفات ليبنتس، وجد أن فكرة الذرة الروحية Monad تحتل المكانة الرئيسية بين أفكار الكتاب، فوضع له في ترجمته الألمانية عنواناً فرعياً هو «المونادولوجيا». وجاء إردمان Erdmann فى القرن التاسع عشر فجعل من هذا الاسم عنواناً رئيسياً للكتاب في نشرته الفرنسية لمؤلفات ليبنتس الفلسفية، ومنذ ذلك الحين اشتهر الكتاب بهذا الاسم.

الإتجاه العام لفلسفة ليبنتس

ينطوى تفكير ليبنتس على بعض المبادىء العامة التى لا يفهم هذا التفكير بدونها. ومن هنا كان لزاماً علينا، قبل أن ننتقل إلى العرض التفصيلى لآراء ليبنتس فى كتاب «المونادولوجيا»، أن نوضح أهم هذه المبادىء،

ونحدد الاتجاه العام الذى سار فيه تفكير ليبنتس، حتى يتسنى وضع أفكاره المفصلة فى إطارها الصحيح، والربط بين هذه الأفكار وبين حياة ليبنتس وشخصيته وعصره.

لقد اشتهر ليبنتس بأنه فيلسوف تلفيقى، أعنى فيلسوفاً يحرص على التوفيق بين المذاهب الأخرى وجمعها كلها فى مذهبه الخاص. ولقد كان بالفعل يود أن يستوعب فى مذهبه كل ما أتى به الأقدمون والمحدثون من «أفكار رائعة» وأراد أن يأتى بمذهب يجمع بين «أفلاطون وديمقريطس، وأرسطو وديكارت، والمدرسيين والمحدثين، وبين اللاهوت والأخلاق والعقل، بحيث يأخذ أفضل ما فى كل منها، ثم يتجاوزها إلى ما هو أبعد منها». على أن هذه النزعة إلى الجمع بين المذاهب المختلفة ليس لها فى كل الأحوال دلالة واحدة. فهى قد تكون مظهراً من مظاهر الهزال الفكرى، حين يعجز المفكر عن الإتيان من عنده بشىء فيملأ الفراغ بآراء الآخرين. ولكنها قد تكون أيضاً منبعثة عن ذهن ممتلىء بمعارف موسوعية شاملة، متفوق فى مجالات متعددة للعلم البشرى، ومن فيض هذه المعارف يتألف مذهبه العام. فهناك إذن توفيق ناشىء عن الإمتلاء

الفكرى. ولقد كانت نزعة ليبنتس إلى الجمع بين المذاهب من النوع الثانى دون شك. فقد كان من الأذهان القليلة التى استطاعت أن تجمع أطرافاً متناثرة من المعرفة البشرية فى مركب واحد متناسق تصطبغ فيه العناصر المتفرقة بصبغته العقلية الخاصة، بحيث يعد مذهبه «مرآة» تنعكس عليها كل جوانب الحياة العقلية فى عصره وفى العصور السابقة، وتتلون، فضلا عن ذلك ، بلون مستمد من طبيعته الذهنية الخاصة.

على أن فلسفة ليبنتس لم تكن محاولة للتوفيق بين المذاهب الفلسفية المختلفة فحسب، بل لقد ذهبت إلى أبعد من ذلك، فحاولت التوفيق بين وجهة النظر الفلسفية والعلمية كلها، وبين وجهة النظر الدينية. ذلك لأن ليبنتس كان على وعى تام بالخطر الذى يهدد الدين من جراء الكشوف العلمية الحديثة. وهكذا حرص فى فلسفته على أن يحد من تطرف الروح العلمية وطموحها، ويحاول تحقيق نوع من «الانسجام» بين مجالى الدين والعلم، مثلما حقق هذا الانسجام بين مملكتى الله والطبيعة. ولم يكن اهتمامه بالتوفيق بين النظرتين الآلية والغائية إلى الكون، سوى تعبير عن اتجاهه إلى تخفيف التعارض بين الدين والعلم. فهو من جهة يمضى حتى

النهاية فى التفسير الآلى للطبيعة، ويسهم بنصيب كبير فى وضع الصيغ العلمية لهذا التفسير، ولكنه من جهة أخرى يحرص على إيضاح الأفكار التى يمكن بواسطتها فهم الطابع الغرضى الحى للكون ومن المؤكد أن ليبنتس كان من أقدر الناس على القيام بهذه المهمة : إذ أنه قد استوعب بعمق الثقافة التقليدية المدرسية ، والفلسفات القديمة ، ولكنه فى الوقت ذاته لم يكن منعزلاً عن تيار العلم الحديث ، بل كان له فيه دور كبير.

ولقد كانت وسيلته إلى هذا التوفيق ذات طابع مزدوج : فهو من جهة يؤكد أن الطبيعة لا تخضع للقوانين الآلية وحدها ، لأنها ليست جوهراً ممتداً فحسب ، وإنما هى ذات طبيعة روحية فى أساسها . ولما كانت هذه هى الفكرة الرئيسية فى كتاب «مذهب الذرات الروحية» ، فإن بقية هذا البحث سيتكفل بشرح تفاصيلها . على أن ليبنتس لا يغفل الوجه الآخر للمشكلة ، وهو التقريب بين تصور الألوهية ـ أى التصور الدينى الرئيسى ـ وبين العلم . فنظرته إلى الألوهية كانت علمية إلى حد بعيد ، وهو يسمى التفكير الإلهى «حساباً» ويحمل بشدة على الفكرة القائلة أن

القوانين العلمية تتوقف على المشيئة الإلهية ، وأن اللّه كان فى استطاعته تغيير هذه القوانين لو شاء . ويعبر ليبنتس عن فكرته هذه تعبيراً واضحاً فى قوله : «ومع ذلك ينبغى ألا نتصور أبداً ما قال به البعض ، من أن الحقائق الأزلية ، لما كانت تعتمد على اللّه ، فأنها اعتباطية متوقفة على إرادته ، على نحو ما يبدو أن ديكارت قد قال به . فهذا حكم لا يصح إلا على الحقائق العارضة التى تخضع لبدء المنفعة أو اختيار الأفضل ، أما الحقائق الضرورية فلا تتوقف إلا على الذهن الإلهى، وهى الموضوع الباطن لهذا الذهن»(١).

الأفكار الرئيسية فى كتاب
«مذهب الذرات الروحية»
مع نصوص مختارة من الكتاب (٢)

على الرغم من الطابع التوفيقى أو التلفيقى الذى لاحظناه من قبل فى فلسفة ليبنتس ، فان هذه الفلسفة

(١) Monadologie. p. 46

(٢) لما كان كتاب «المونادولوجيا» قصيراً، فقد آثرنا الا نخصص قسماً مستقلا فى نهاية البحث للنصوص المقتطفة منه، وأدمجنا هذه النصوص فى العرض الذى نقدمه للكتاب. وسوف نرمز فيما يلى بالحرف M . ويلى ذلك رقم الفقرة، وهذه الأرقام. موحدة فى جميع الطبعات .

كانت تتسم منذ بدايتها بوحدة تدعو إلى الإعجاب .
فمنذ كتابات ليبنتس الأولى ، نرى لديه بوادر واضحة لمعظم الأفكار التى تضمنها هذا الكتاب الذى نعرضه الآن ، والذى ألفه قبل وفاته بعامين فقط . ومن أهم هذه الأفكار التى ظلت تلازمه من البدايه إلى النهاية ، الاعتقاد بأن الوحدات الحقيقية التى يرتد إليها العالم ليست وحدات مادية ، وأن العالم الحى ، لا الطبيعة غير الحية ، هو الذى يمثل الفردية بأجلى معانيها . هذا الاتجاه يظهر منذ أول بحث فلسفى كتبه ليبنتس ، وهو البحث الخاص بمبدأ الفردية ، الذى كتبه عام ١٦٦٣ ، ثم يتردد فى معظم كتاباته التالية . ولقد اتجه ليبتس فى البداية إلى استخدام لفظ «النفوس» للتعبير عن هذه الوحدات الأولية غير المادية ، التى يتألف منها كل ما فى العالم من أشياء مركبة ، وكان فى هذه التسمية متأثراً ، بطبيعة الحال ، بتلك التجربة الاستبطانية التى نشعر فيها بأن الذات أو الأنا هى الجوهر الحقيقى لكياننا وأساس الفردية فيه . على أن القول بأن الطبيعة مؤلفة من نفوس ، يؤدى إلى تجاهل الفوارق الأساسية فى مراتب الكائنات التى يتميز بعضها بالنطق والتفكير ،

ويفتقر بعضها الآخر إلى كل مبدأ معقول . ومن هنا التمس ليبنتس لفظاً آخر ، وجده في كلمة «الموناد» . وهذه الكلمة اليونانية تعنى أصلا الوحدة الحسابية ، ولكنها تحولت إلى معنى الوحدة المادية ، أو الجزء الذى لا يتجزأ . على أن ليبنتس يضيف إليها معنى جديداً : فهى عنده وحدة حية ، أى أنها فردية الكائن الحى فى أدق وأبسط مظاهرها ، وهى موجودة وجوداً فعلياً . وليست مجرد وحدة فكرية ، كالوحدة الحسابية . وهو يعرفها بأنها «جوهر بسيط ، تشتمل عليه المركبات ، والمقصود بلفظ بسيط أنه لا يتجزأ .. وحيث لا تكون أجزاء ، لا يكون الامتداد ولا الشكل ولا الانقسام ممكناً. وهذه الذرات الروحية هى الذرات الحقيقة ، وهى بالاختصار عناصر الأشياء»(١).

وأهم ما يميز فكرة «الموناد» عند ليبنتس من فكرة الذرة كما عرفها الفلاسفة اليونانيون القدماء مثلا، هو أن الأولى فكرة ديناميية فى أساسها. فالذرة الروحية عند ليبنتس هى قبل كل شئ وحدة للقوة أو للنشاط والفاعلية. وبعبارة أخرى فإن ليبنتس يريد أن يقول أنه

---

(١) M. 1, 3.

لا شئ حقيقى، حتى فى المادة نفسها، إلا ما هو نشيط فعال، وما هو فى أساسه طاقة دينامية.

ويربط «ماير» بين فكرة الذرة الروحية وبين شخصية ليبنتس على نحو طريف يستحق أن نشير إليه هنا بشئ من التفصيل. فصورة الجوهر الفرد قد تكونت عن طريق تأكيد ليبنتس لذاته فى مقابل العالم.

وعبقرية ليبنتس الشاملة كانت تضفى على العالم صورتها، وهكذا تصور الذات على أنها داخلة فى تركيب العالم، أو تصور العالم على أن فيه شيئاً من طبيعة الذات. فماهية العالم لا تفهم من خلال الموضوعات الممتدة كما تقول الميكانيكا الديكارتية، وإنما تفهم عن طريق تجربة ذاتية، هى تجربة بذل الطاقة والإرادة.

هذه الفكرة تعد مظهراً لشعور ليبنتس بالتقابل بين وجوده الذى يؤكد ذاته بوصفه وحدة عقلية أو جوهراً فرداً، فى مقابل تغير الزمان وتقلباته. وهذا الوجود لايشعر بذاته، بوصفه شخصاً، إلا نتيجة الجهد الفكرى الذى يبذله من أجل إضفاء صورة على مادة التجربة الحسية. وهكذا فإن مذهب ليبنتس الديناميكى إنما هو «تعبير باطن، واع بذاته، عن وجوده الخاص، إذ أن

تحمسه الشديد للنشاط والفاعلية إنما يرجع إلى وجوده الخاص»[1] وبقدر ما يكون للذرة الروحية من إدراكات واضحة، تكون فاعليتها، على حين أن الاختلاط في إدراكاتها يعني سلبيتها، وهكذا تتحدد مراتب القيم في هذا المذهب تبعاً لدرجة النشاط الروحي أو العقلي، أ و وضوح المعرفة الذاتية [2] ولكي يدلل «ماير» على ارتباط فكرة القوة هذه بصفات ليبنتس الذاتية ومسلكه الخاص في الحياة، يربط على نحو طريف بين النص الذي يؤكد فيه ليبنتس فكرة القوة، في كتاب «المونادولوجيا» وبين نص آخر في رسالة سياسية، هي رسالة «الأمن العام» التي كتبها في وقت مبكر من حياته، وفيها يقول «إن الذهن البشري لا يمكنه أن يسكن، فالسكون، أي انعدام الحركة نحو المزيد من الإدراك، إنما هو عذاب للذهن. ومن يعرف كل شيء يفقد لذة الكشف، كما أن من يملك كل شيء يفقد لذة الكسب.. ومن هنا فقد أحس الإسكندر الأكبر بالقلق من أن يغزو أبوه العالم كله،

(١) R. W. Meyer: Leizbitn and the 17 th Century Revolution (English Trans) Cambridge 1952, p. 118-119.

(٢) Ibid, p. 123.

(٣) Ibid, p. 118.

فلايترك له شيئاً يغزوه»[٣] وفى رأينا ان محاولة ماير هذه، وإن تكن تنطوى أحياناً على قدر من الإسراف، فإن فيها عناصر معقولة إلى حد بعيد: فأغلب الظن أنه لم يكن من قبيل المصادفة أن نرى ذلك المفكر الذى قضى حياته فى صحبة الملوك والأمراء، وشعر بسطوة القوة وتأثيرها وأهميتها، وخضع هو ذاته لتأثيرها، وجاهر باحترامه لها - نقول إنه لم يكن من قبيل المصادفة أن يجعل ذلك المفكر من فكرة القوة أساساً لتفسيره للعالم. ومعياراً للتفرقة بين مراتب الكائنات.

وإذاً فجوهر الأشياء جميعاً، فى رأى ليبنتس، هو القوة. والقوة تصور أسبق من تصور الحركة نفسه، إذ أن الحركة، رغم ما لها من أهمية فى تفسير الظواهر، ينبغى أن ترد آخر الأمر إلى نوع من القوة أو النزوع. ومن المؤكد أن ليبنتس قد أدخل تغييراً أساسياً على مفهوم الجوهر حين عرفه على هذا النحو: إذا أن الجوهر فى الفلسفات التقليدية كان هو العنصر أو الأساس الذى يظل ثابتاً من وراء تغييرات الظواهر، على حين أنه يغدو، فى معناه الجديد عند ليبنتس، متغيراً فعالا، خالياً من أى عنصر سكونى.

ولم يكن تقريب ليبنتس بين هذه الوحدات الجوهرية الفردية وبين النفوس البشرية مجرد تشبيه فحسب، بل إنه يعنى بالفعل أن ذلك النوع الخاص من الوجود، الذى نستشعره فى أنفسنا، منتشر فى الكون بأكمله ولكن بدرجات متفاوته. ذلك لأن الطبيعة لا تعرف انفصالا ولا طفرات مفاجئة، بل إن «قانون الاتصال» يسرى على أجزائها. ومن هنا قال ليبنتس بنوع من الحيوية أو الوجود الحى فى الطبيعة بأسرها، وأكد أن الحياة النفسية منتشرة فى جميع نظام الطبيعة، وإن كانت تتخذ صوراً غامضة فى الكائنات الدنيا، ولا ترقى إلى مرتبة الوعى الكامل إلا فى الدرجات العليا فى الحياة. وهكذا يميز بين ذرات روحية تكتفى بالإدراك وحده Perception ، وأخرى يتوافر لديها الإدراك الذاتى أو الوعى appercéption الأولى يسميها بالذرات الروحية المحض، أو الكمالات entéléchies ، والثانية هى النفوس البشرية، التى تتميز عن الأولى بازدياد تميز إدراكها، وبوجود ملكة الذاكرة والوعى لديها، وبمزيد من الإرهاف فى حواسها.

وربما رأى البعض - عن حق - أن فكرة بعث الحياة فى الطبيعة، أو تصور كل ذرة فى الكون على مثال

النفس البشرية، تفتح الباب أمام التفسير الأسطورى للأشياء، إذ أن الأساطير ما هى إلا محاولة لبعث الحياة فى الكون بأكمله، ولتشبيه طبائع الأشياء كلها بطبيعتنا الخاصة. غير أن من المؤكد، رغم ذلك، أن ليبنتس قد أضفى على رأيه هذا طابعاً علمياً مستمداً من قانون الاتصال الذى أشرنا إليه من قبل. فالطبيعة فى رأيه تسير على نحو مطرد - وهذا مبدأ أساسى لا غنى عنه للروح العلمية الصحيحة. ومن الخطأ أن نتصور أن ذلك الجزء من المادة، الذى تتألف منه الأجسام البشرية، هو وحده الذى يرتبط بمبدأ نفسى أو روحى، وهو وحده ملكة الإحساس والإرادة. فمعقولية الطبيعة واتساقها مع نفسها، تتنافى مع هذا التصور، وعلى ذلك فإن الروح العلمية الصحيحة - فى رأى ليبنتس - هى التى تحتم القول بانتشار نوع من الحياة النفسية فى الطبيعة بأسرها.

ومن المؤكد أن تطور علم الأحياء فى عصر ليبنتس كان من أهم الأسباب التى دفعته إلى الأخذ بفكرة انتشار الحياة فى الكون بأسره: فقد أتاح المجهر لبعض العلماء، وعلى رأسهم ليفنهوك Leeuwenhoek، أن يكتشفوا كائنات عضوية دقيقة لا تراها العين

المجردة فى الأجسام المادية التى تبدو جامدة لا حياة فيها. ووجد ليبنتس فى ذلك تأكيداً تجريبياً لرأيه القائل أن المادة التى تبدو غير حية تنطوى على عالم كامل من الكائنات العضوية الدقيقة المشابهة فى طبيعتها لنا. وهكذا تصور الكون كله على أنه جسم عضوى لا متناه يتضمن فى ذاته أجساماً عضوية صغيرة، وهذه بدورها تنقسم إلى أجسام عضوية لا متناهية فى الصغر.

«... فكل جزء من المادة ليس فقط قابلا للقسمة إلى ما لا نهاية، كما أدرك القدماء، إنما هو يقبل الانقسام بالفعل إلى فروع لا نهاية لها، وكل جزء منه يقبل القسمة إلى أجزاء لكل منها حركته الخاصة..

«ومن هذا يتضح أن هناك عالماً للمخلوقات، وللأحياء، وللحيوانات، وللكمالات، والنفوس، فى أصغر أجزاء المادة.

«ونستطيع أن نتصور كل جزء من المادة على أنه بستان ملئ بالنباتات، أو حوض ملئ بالأسماك. غير أن كل فرع من النبات، وكل عضو من أعضاء الحيوان، وكل قطرة من هذه السوائل، وهو بدوره بستان أو حوض هكذا. وحتى التراب والهواء الواقعان بين

النباتات، أو الماء الذى تسبح فيه الأسماك، يحتوى بدوره على مخلوقات دقيقة لا ترى»[1].

فاذا كانت الحياة النفسية، والقوة والنزوع منتشرة فى الطبيعة بأكملها، فإن ذلك يعنى أن كل ذرة تمثل الكون بأكمله، وتشعر بكل ما يحدث فيه. وكما اتضح فى كشوف علم الأحياء أن بذرة النبات تنطوى فى ذاتها على صورة الكائن بأكمله، وأن فى البذرة نوعاً من التشكل الأصلى préformation ، فإن معنى ذلك أن كل ذرة روحية تنطوى فى ذاتها على مبدأ جميع تطوراتها المقبلة.

هذه الفكرة الرئيسية فى فلسفة ليبنتس كان لها - كما رأينا - أصل تجريبى مستمد من تطور العلوم فى عصره. غير أن فى وسعنا أن نرجعها إلى أصول أخرى إلى جانب الأصل التجريبى. فقد استمدها ليبنتس من مبدأ منطقى عام، هو المبدأ القائل أن كل محمول متضمن فى الموضوع omne praedicatum in-est subjecto ، بحيث لا تكون فكرته الميتافيزيقية إلا تطبيقاً أنتولوجياً لهذا المبدأ المنطقى. وفضلا عن ذلك

(١) M., pp. 65-68.

فربما استطاع المرء أن يردها إلى أصل مستمد من نمط الحياة التى عاشها ليبنتس ذاته. ففى حياته الحافلة بالنشاط السياسى والعملى، كان كلما فرغ لنفسه، وخلا لأفكاره، استخرج من ذاته كشفاً جديداً أو فكرة رائعة. فالذات إذن تنطوى فى داخلها على كل شئ، وتطوراتها كلها موجودة فيها ضمناً، وتستخلص منها بالاستنباط. وهى رغم عزلتها تعكس العالم كله وتمثله، مثلما كان ذهنه يعكس معارف عصره كلها ويمثلها. ولقد كانت لهذه الفكرة الرئيسية، أعنى فكرة تمثيل الذرة الروحية الواحدة للكون بأسره، بحيث تكون «مرآة» ينعكس عليها الكون فى صورة مصغرة، وانطواء كل ذرة روحية على عناصر تطورها المقبل كلها ـ كانت لهذه الفكرة نتائج فلسفية متعددة، سنورد فيما يلى أهمها:

أولى هذه النتائج، هى القضاء على الحد الفاصل بين الكون والفساد، والميلاد والممات بحيث لا تكون هذه الأضداد إلا حالات طارئة تتعاقب على الذرات الروحية فحسب. ويؤكد ليبنتس أنه لا يعترف بوجود نفس خاصة تظل مرتبطة بكتلة معينة من المادة وتقتصر على رعاية شأنها. «ذلك لأن الأجسام كلها فى صيرورة دائمة كالأنهار، وهناك أجزاء تدخل فيها وتخرج منها

بلا انقطاع.. ويترتب على ذلك أنه لا يوجد كون تام، ولا فساد أو موت كامل بالمعنى الدقيق، يكون قوامه مفارقة النفس. وليس مانسميه بالكون إلا نماء وزيادة، مثلما أن ما نسميه بالموت إنما هو ضمور ونقصان».

ومن النتائج المترتبة على القول بأن الذرة الروحية مرآة ينعكس عليها الكون كله، الاعتقاد بامكان تحصيل معرفة كاملة عن طريق مجموعة من الأفكار البسيطة مرتبة ترتيباً صحيحاً. فالأفكار البسيطة تؤدى على المستوى المعرفى، نفس الدور الذى تؤديه الذرات الروحية على المستوى الأنثولوجى. وهى بدورها تعكس عالم المعرفة بأسره، وتكشفه لمن يستطيع أن يستنبطه منها. ولقد كان هذا الاعتقاد ملازماً لتفكير ليبنتس منذ شبابه المبكر، وظل على الدوام مؤمناً بامكان وجود «أبجدية للفكر البشرى» وبامكان التوصل إلى ذلك «العلم الإلهى» القائم على التحليل والرمزية والتركيب الجامع. وكان ذلك فى رأيه أهم الأهداف وأجدرها بجهد الإنسان وسعيه. فاذا أمكن الاهتداء إلى قائمة كاملة الأفكار البسيطة، وبالعناصر الأولية التي لا تقبل الانقسام فى كل فكر بشرى، فمن الممكن عندئذ أن نرمز لكل منها بعلامة، ويصبح استنباط كل الحقائق التى لم

تكتشف بعد مسألة حساب وجمع فحسب. وعلى هذا النحو ينشأ «علم كلى» scientia universalis يتيح للإنسان فهم أدق أسرار الكون بطريقة حسابية رياضية دقيقة. ولقد كانت الخطوة الهامة التى اتخذها ليبنتس فى سبيل بلوغ هذا الهدف، هى وضعه للدعائم الأولى للمنطق الرياضى، الذى قصد منه أن يكون أداة تدوين هذه المعرفة البشرية الشاملة. وفى هذا المجال كان ليبنتس رائداً لحركة لم تستأنف سيرها إلا بعد وفاته بما يقرب من مائة وخمسين عاماً. ورغم أن المنطق الرياضى الحديث لا يضع لنفسه - فى الوقت الراهن على الأقل - مثل هذا الهدف الطموح الذى قصد إليه ليبنتس، فأنه يدين لهذا الأخير قطعاً بفضل التمهيد لظهوره والقيام بالأبحاث الأولى التى أدى تطورها إلى نضوج هذا العلم.

أما النتيجة الثالثة لرأى ليبنتس هذا فهى فكرة الانسجام. وقد ظهرت هذه الفكرة عند ليبنتس نتيجة لوجود صفتين متعارضتين - فى الظاهر - للذرات الروحية عنده. فكل ذرة هى، حسب تعريفها، فردية تماماً، منطوية على نفسها، ليست لها «أبواب ولا نوافذ» تطل منها على العالم الخارجى. غير أنها، من جهة

أخرى، تعكس العالم كله من وجهة نظرها الخاصة فكيف إذن يتسنى تحقيق الاتفاق بين وجهات نظر الذرات الروحية كلها؟ لا بد لذلك من وجود نوع من «الانسجام المقدر» harmonie préétablie بين الكائنات كلها فى الكون. ومصدر هذا الانسجام هو الإرادة الإلهية، التى شاءت أن تتفق ادراكات النفس الواحدة مع إدراكات كل نفس أخرى، مع أن كلا من هذه النفوس مقفلة تماماً على ذاتها، ولا سبيل إلى اطلاعها على ما يحدث فى الأخريات. وهكذا يرى ليبنتس أن الأصل الإلهى المشترك لكل النفوس هو الذى يضمن منذ الأزل حدوث انسجام بين ادراكتها، بحيث يكون قد قدر لها منذ البداية أن تكون صورة متوافقة متسقة لعالم واحد رغم اختلاف وجهات نظرها إليه.

وتؤدى فكرة الانسجام هذه إلى حل مشكلة العلاقة بين النفس والجسم على نحو يلائم اتجاه ليبنتس الفكرى الخاص. ولعل أفضل وسيلة لعرض طريقة ليبنتس الخاصة فى اتخاذ فكرة الانسجام سبيلا إلى فهم العلاقة بين النفس والجسم، هى أن نقدم مقتطفات من نصوصه التى يظهر فيها رأيه فى هذه المشكلة بوضوح كامل.

يشرح ليبنتس فى رسالة له أصبحت تعرف، ضمن مجموع مؤلفاته، باسم «الإيضاح الثانى» deuxiéme éclaircissement ، رأيه فى هذا الموضوع من خلال تشبيه طريف فيقول: «لنفرض أن هناك ساعتين متفقتين تماماً كل مع الأخرى فى الدلالة على الوقت. مثل هذا الاتفاق يمكن أن يحدث على واحد من أنحاء ثلاثة: أولها أن يكون هناك تأثير متبادل من الواحدة فى الأخرى، والثانى أن يكون الاثنتان معاً خاضعين لعناية مستمرة من مشرف يدأب على ضبطهما، والثالث أن تظل كل منهما بذاتها دقيقة تماماً فى ضبط الوقت.. والطريقة الثالثة تقتضى صنع الساعتين منذ البداية بمهارة وفن يضمنان لنا اتفاقهما فى المستقبل، وتلك هى الطريقة التى أطلق عليها اسم الاتفاق المقدر. فاذا وضعنا النفس والجسم محل الساعتين، لوجدنا أن اتفاقهما أو انسجامهما يمكن أن يحدث على واحدة من طرائق ثلاث: الأولى هى طريقة التأثير، وهى طريقة الفلسفة الشائعة. ولكن لما لم يكن ثمة وسيلة لتصور الطريقة التى يمكن بها أن تنتقل الدقائق المادية أو الصفات اللامادية أو الأنواع الحسية من أحد هذين الجوهرين إلى الآخر، فمن الواجب التخلى عن هذا الغرض. أما

طريقة الاستعانة بمشرف فهي مذهب العلل الفرضية causes occasionnelles، ولكنى أرى أن ذلك يعنى اقحام الألوهية فى حادث طبيعي مألوف ينبغي، وفقاً للمبادئ العقلية، ألا يتدخل فيه شئ مضاد للمجرى العام للحوادث الطبيعية. فلا يتبقى إذن سوى فرضى، أعنى طريقة الأنسجام المقدر، التى نقول فيها إن القدرة الإلهية الأزلية قد صاغت الجوهرين منذ البداية ونظمتهما بدقة تبلغ من الكمال حداً يجعل كلا منهما، فى سيره وفقاً لقانونه الذى اكتسبه مع وجوده، يتفق تماماً مع الآخر وكأن هناك تأثيراً متبادلا، أو كأن الله يتدخل بيده دائماً ليحدث هذا الاتفاق العام». ويزيد ليبنتس فكرته وضوحاً حين يقول فى «المونادولوجيا»:

«ولقد أتاحت لى هذه المبادئ أن أهتدى إلى تفسير طبيعى للاتحاد أو الاتفاق بين النفس والجسم العضوى. فالنفس تتبع قوانينها الخاصة، والجسم كذلك يتبع قوانينه الخاصة، وهما يلتقيان بفضل الانسجام المقدر بين جميع الجواهر، ما دامت الجواهر كلها تمثل كوناً واحداً. فالنفوس تسلك، وفقاً لقوانين العلل الغائية، عن طريق النزوع أو الرغبة appétition والغايات والوسائل. أما الأجسام فتسلك وفقاً لقوانين

العلل الفاعلة أو الحركات. والعالمان: عالم العلل الفاعلة وعالم العلل الغائية، منسجمان فيما بينهما»(١).

وهكذا ينتقد ليبنتس نظرية ديكارت، التى تقول بتأثير الجسم والنفس كل منهما فى الآخر، على أساس استحالة هذا التأثير بين جوهرين أحدهما مادى والآخر لا مادى، وينتقد نظرية مالبرانش التى تجعل تأثير النفس فى الجسم مجرد «فرص» أو «مناسبات» لتدخل القوة الإلهية. ومن المؤكد أن ليبنتس، رغم أنه قد اعتاد التخلص من كل مشكلة تعترضه بالالتجاء إلى فكرة العناية الإلهية، كان فى هذه الحالة يخفف من غلواء النزعة الدينية المتطرفة عند مالبرانش، الذى جعل التدخل الإلهى مستمراً فى كل لحظة يحدث فيها تأثير من النفس فى الجسم أو العكس. وليس معنى ذلك أن ليبنتس قد أنكر تدخل المبدأ الإلهى، ولكنه جعل هذا التدخل يقتصر على فعل الخلق الأصلى، الذى أدى إلى وجود الذرات الروحية أو الجواهر البسيطة، ولما كان هذا الفعل كاملا منذ البداية، فإن كل شئ يسير بعد ذلك فى طريقة السليم، ويتحقق الانسجام التام بين

---

(١) M., pp. 78-79.

الجسم والنفس، على الرغم من أن كلا منهما يسلك وفقاً لطبيعته الخاصة، ولا يخضع إلا للقوانين التى تقتضيها هذه الطبيعة.

على أن الانسجام بين الجسم والنفس، داخل الكائن البشرى، إنما هو تعبير جزئي عن ذلك الانسجام الأكبر الذى يسود الكون بأسره فقد كان من الطبيعى أن يؤمن ليبنتس بأن العالم منظم ومعقول، وبأنه لا وجود لشئ ممتنع أو شاذ أو خلو من المعنى. وهكذا يستطيع العقل الخالص أن يدرك كل ما فى الكون تبعاً لما فيه من ضرورة، ولما له من دلالة، ويختفى الشر من العالم، ويصبح كل شئ منظماً، واضحاً، معقولا، ويخلو العالم من كل خطأ وكل نقيصه. وهذه الفكرة واضحة كل الوضوح من العبارة الأخيرة فى النص الذى اقتبسناه منذ أسطر قليلة، والتى أكد فيها وجود أنسجام بين عالم العلل الفاعلة وعالم العلل الغائية. وبعبارة أخرى، فحين يسير كل شئ تبعاً لقانونه الطبيعى الخاص، يكون فى الوقت ذاته قد حقق الغاية الإلهية المقصودة منه. وتفسير الأشياء علمياً يتفق وينسجم مع تفسيرها فى ضوء الحكمة الإلهية «فلا شئ فى الكون يضيع

بدداً. ولا شئ عقيم أو ميت، ولا اضطراب ولا خلط إلا في الظاهر فحسب»[1].

في هذا العالم الذي يسوده الانسجام، والذي هو - في رأى ليبنتس - أفضل عالم ممكن، لأن الكمال الإلهي يحتم ألا يتحقق بالفعل إلا أكمل ما يمكن أن يتحقق - في هذا العالم المنظم، الذي يتكشف كل شئ فيه للعقل وللمنطق، تقف النفوس في مراتب يعلو بعضها على بعض، وتحتل المرتبة العليا فيها تلك الأرواح العاقلة التي هي صورة للألوهية، والتي ترتبط بالله في علاقة أشبه بعلاقة المخترع بآلته، بل الحاكم برعاياه، والأب بأبنائه[2]. هذه الأرواح العاقلة يكون مجموعها ما أطلق عليه ليبنتس اسم «مدينة الله»، أي «أكمل دولة يحكمها أكمل الملوك».

ويختتم ليبنتس كتاب «المونادولوجيا» بفقرات شعرية الأسلوب ، تتضمن إطراءً «لمدينة الله» هذه وتمجيداً لما يسودها من خير ونظام. وفي هذا النص يقول:

---

(١) M., p. 69.

(٢) M., p.48.

«هذه المدينة الإلهية، وهذه المملكة الشاملة بحق، هى عالم أخلاقى فى العالم الطبيعى، وهى أرفع أعمال الله وأكثرها ألوهية، وفيها يكون المجد الإلهى بحق، إذ أن هذا المجد ما كان ليوجد لو لم تكن الأرواح تدرك عظمته وخيرته وتعجب بها. وفى هذه المدينة الإلهية تتبدى خيرية الله حقاً، على حين حكمة الله وقدرته تتبدى فى كل شئ.

«وكما أثبتنا من قبل وجود انسجام كامل بين مملكتين طبيعيتين، إحداهما مملكة العلل الفاعلة والأخرى مملكة العلل الغائية، فينبغى أن نلاحظ هنا انسجاماً آخر بين المملكة المادية، مملكة الطبيعة، وبين المملكة الأخلاقية، مملكة اللطف الإلهى grâce أى بين الله منظوراً إليه على أنه مهندس آلة الكون، والله منظوراً إليه على أنه ملك مدينة الأرواح الإلهية.

هذا الانسجام يجعل الأشياء تؤدى إلى اللطف الإلهى بنفس مسالكها الطبيعية، بحيث ينبغى مثلا أن يدمر العالم ويقوم بالطرق الطبيعية فى اللحظات التى يقتضيها حكم الأرواح. من أجل عقاب بعضها ومثوبة البعض الآخر.

ويمكن القول أيضاً أن الله بوصفه صانعاً -archi tecte يرضى فى كل شئ الله بوصفه مشرعاً، وأن الخطايا، بالتالى، ينبغى أن تنطوى فى ذاتها على عقوبتها وفقاً لقانون الطبيعة، وبفضل التركيب الآلى للأشياء، وأن الأفعال الصالحة، بالمثل، تجتذب بطرق آلية بالنسبة إلى الأجسام، وإن لم يكن من الممكن أن يحدث ذلك دائماً على الفور.

«وأخيراً، ففى هذا الحكم الكامل لا يمكن أن يكون هناك فعل صالح دون ثواب، ولا حكم فاسد دون عقاب، ولابد أن ينتهى كل شئ إلى تحقيق صالح الأخيار.. وهذا ما يجعل الأشخاص الحكماء والفضلاء يحرصون على فعل كل ما يبدو متفقاً مع الإرادة الإلهية المتوقعة أو المستبقة، ويرضون مع ذلك بما يصدر عن الله بالفعل عن طريق إرادته الغامضة، التى هى متسقة وحاسمة. ذلك لأنهم يدركون أنه لو كان فى وسعنا فهم نظام الكون فهماً كافياً، لوجدناه يفوق ما يتمناه أحكم الناس، ولاتضح لنا أن من المستحيل جعله أفضل مما هو، ليس فقط بالنسبة إلى الكون فى مجموعة، بل أيضاً بالنسبة إلينا على التخصيص، وذلك إذا ما تعلقنا كما ينبغى بخالق الكل، لا بوصفه صانع وجودنا وعلته الفاعلة

فحسب، بل أيضاً بوصفه سيدنا، والعلة الغائية التى ينبغى أن تكون هى الهدف الكامل لإرادتنا، والتى تكون فيها وحدها سعادتنا»(١).

فى هذه العبارات الصوفية التى يختتم بها كتاب «المونادولوجيا»، يعبر ليبنتس بدقة عن نظرته العامة إلى الكون، وهى النظرة التى حاول فيها - كما قلنا فى حديثنا عن الاتجاه العام لفلسفته - أن يوفق بين العلم والدين على قدر استطاعته. ولقد اتهم ليبنتس بأنه يلجأ إلى فكرة العناية الإلهية ليتخلص بها من كل صعوبة فلسفية تواجهه. ولو تأملنا النص السابق جيداً، لوجدنا لهذا الاتهام ما يبرره، إذ يصل به الأمر إلى حد الدعوة فلسفياً إلى قبول كل ما يحدث فى الكون، حتى ما لا يكون فى ذاته مفهوماً أو معقولاً، على أنه مظهر لحكمة إلهية غامضة لا نستطيع أن نحيط بجميع أطرافها، ولا يمكننا أن ندرك مقاصدها الحقيقية بعقولنا القاصرة. ولقد كان من الطبيعى أن يلجأ هذا المفكر الذى قضى حياته وسط الملوك والأمراء والحكام، إلى تشبيه الكون بمملكة إلهية، وتشبيه الله بالحاكم أو «أكمل الملوك». وشتان ما بين طريقة التفكير هذه وطريقة تفكير

---

(١) M., pp. 86-90.

اسبينوزا (معاصره الاكبر سناً) الذى طالما نبه إلى خطأ تصور الناس لآلهتهم من خلال تصورهم لحكامهم.

ومع ذلك فاننا لا نستطيع أن ننكر لليبنتس فضلا كبيراً، هو أن تأكيده لفكرة الغائية والحكمة الكونية لم يتم على حساب القوانين الطبيعية. فهو لم يكن - مثل مالبرانش - على استعداد للتضحية بانتظام الطبيعة واطراد قوانينها فى سبيل تأكيد القدرة الإلهية، وإنماحرص على تأكيد الاتفاق أو الإنسجام بين انتظام الطبيعة وغائيتها، أو - حسب تعبيره فى النص السابق - بين الله بوصفه صانعاً والله بوصفه مشرعاً. وربما كان ذلك أقصى ما يستطيع أن يفعله شخص مثل ليبنتس، كان ذا عقلية علمية نفاذة من جهة، ولكنه كان من جهة أخرى صفياً ومستشاراً لحكام رجعين. وسواء آمن المرء أم لم يؤمن بالفرض الذى يقول به رسل، من أن ليبنتس كان ذا فلسفتين، إحداهما لا هوتية هى تلك التى أذاعها فى كتاب «الحكمة الإلهية»، والأخرى علمية هى تلك التى تضمنتها أبحاثه وكتاباته المختلفة، فمن المؤكد، على أية حال، أن ليبنتس قد صان حقوق العلم، فى نفس الوقت الذى حاول فيه - عن طريق فكرة الانسجام - أن يجعل للاهوت دوراً فى تفسيره للعالم.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٨٦٣

I.S.B.N 977-01-4391-x

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى

خمسة وعشرون قرشا

بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

الهيئ